صدى الحرية

* أسبوعية * ثورية * اجتماعية * توعوية * منوعة *

فريق QMT قدسيا الإعلامي

للتواصل وإرسال المشاركات :

Facebook / SadaALhoryeh ** freequd@gmail.com

الأخطاء الطبية...

حاصرهم... لتهرب!!

الولاء والبراء..والقتل

لسنا ضحايا..

قدسيا تحت الحصار

الوقوف مجدداً

صدى الحرية

العدد 78

الجمعة 19

أيلول 2014

حاصرهم... لتهرب!!

قدسيا مجدداً، المدينة التي لا تنام وإن نامت لا يغفى الإصرار ولا التحدي ولا الحب ولا الأمل، فهي القلب الذي يضم ما يقارب النصف مليون نسمة وهي التي استقبلت الكثير من النازحين من مناطق عدة منذ بداية الثورة، ولتكون الأمان والملاذ، هذا ذنبها، وذنبها الآخر أنها لم تقبل معيشة الذل والمهانة، ليكون ذلك سبباً في الكثير من الحملات الشرسة والجائرة التي شهدتها، كما أنها لم تسلم من موجات الحصار المتكررة بين الفينة والأخرى، لتعود من جديد لنفس المشهد مع نهاية الأسبوع، لكن بلا مبرراتٍ واضحةٍ في هذه المرة، على الأقل على صفحات إعلام النظام، وهذا يفتح الباب للحديث عن الإعلام ودوره في مدينتنا خلال هذه الظروف، بدءاً من تبادل الاتهامات التي لا تكاد تتوقف، مروراً بالمواقف التي يميل لها بعض الناس مما يجري، نتيجةً حتمية لتأثير الإعلام، حيث توهم الكثير من جيراننا أننا نحمل لهم الكره والعداء، وهيأت لهم بعض الصفحات الإعلامية لا سيما صفحات التواصل الاجتماعي أن الثوار يتربصون بهم، فقلبت الحقائق، وساعدها ميل المؤيدين لنظام الأسد لذلك الصف على حساب حتى مصيرهم وحياتهم في مستقبل البلاد، وتناسوا أنهم كانوا شركاء في وطنٍ واحدٍ معنا لم تفرقنا إلا مزاجية النظام الطائفية، امتد دور الإعلام أكثر على نفوس المدنيين هنا في المدينة وما حولها، بالتأكيد انعكس ذلك على تصورات الناس وانطباعاتهم، لا سيما بعد التململ من طول مدة الثورة، أو تأخر الحسم. وبحسب اعتقاد البعض يصبح المدنيون هم الضحية الوحيدة، أما الثوار فقد اختاروا الموت على الحياة ولا شأن للناس بهذا- الصراع — وكأننا أمام طرفين متكافئين في القوة متعطشين للحكم، في حالةٍ ومبررٍ غريب وبعيدٍ عن المنطق، إذ إن هؤلاء لم يلحظوا الدور الذي يقوم به إعلام النظام بالتجييش والتحريض على المدينة، بل إنهم لم يسألوا أنفسهم عن « مصلحة الثوار في جر المدينة لحربٍ مع ما فيها كما أسلفنا من مدنيين؟» ويبدو أن تغليب المصلحة الفردية وصوت « الأنا » وتسييده على كل ما يحدث تحول إلى سمةٍ تعمي عن مشاهدة الحقيقة، بل أكثر من ذلك وصل حد الرفض للاستماع إلى الحقيقة والمنطق.

بالطبع فإن الإجابة عن سؤالنا السابق تشرح وتؤكد همجية النظام، وحقده على المدنيين بغض النظر عما إذا كانوا في موالين أم معارضين، وإلا فما هو مبر منع الموظفين الحكوميين من الذهاب إلى أعمالهم؟

واقع المجتمع السوري فكرياً يعكس اتجاهين بغض النظر عن الانتماء الطائفي، بين مسلمٍ لقدر الله تعالى، وآخر آثر نفسه والهرب من شبح الموت، هؤلاء هم المساكين في ظل الواقع.

ومن حق الناس أن تفهم ما يحدث في المدينة اليوم فهو يرجع كما في كل مرةٍ إلى التطور التي تشهد تطوراً متسارعاً على الصعيد العسكري، لاسيما بعد الاشتباكات التي دارت في قلب العاصمة دمشق" القلعة المحصنة والمحتلة "، في الأسبوع الماضي، وما حملته معها من دلالات سبق أن تحدثنا عنها حول معركة دمشق واقترابها، وما سببتها من ذعر وهلع في صفوف ميليشيا الأسد باتت واضحةً للعيان لا تحمل أدنى ريبةً في ذلك.

الأمر الذي ساهم أيضاً في مزيدٍ من الخوف على مصير النظام هو إبعاد الأسد عن الضربة المحتملة على تنظيم الدولة، وإمكانية تدريب الثوار وتسليحهم بدلاً من ذلك، ما يؤكد خروجه من المعادلة على الأرجح، وفي ضوء هذه المتغيرات يصبح من الطبيعي أن ينعكس هذا على المشهد في كل ساحات الأرض السورية، وإحداها " قدسيا "، ذات الموقع الجغرافي الهام عسكرياً.

وتبقى أساليب الحرب كثيرةً لدى النظام، بين قتلٍ وعقابٍ ، بين حصارٍ وموت، وتختلف الأماكن والحقد ذاته ينصبّ ولكل حقد حجة ولكل إجرام مبرر هو حال النظام الأسدي وحال سوريا اليوم، في إطار انشغال العالم بالمؤتمرات والقاعات، قلوب وأناس حالهم مرير ... ومن الأسى لهم الكثير ... الجميع يشترك بالهدف وبالتالي العقاب ...أصبح ثوب الحرية يحاك بأنامل السوريين ويقطر منهم دماً، مُخضّباً ذاك الثوب.

الولاء والبراء .. والقتل

اعتادَ "أبو أحمد" الوقوف أمام باب منزله، بعينين ملؤهما الخوف، والرهبة، كان يبدو متهيبًا من جميع المحيطين به، وكان يدخن السجائر بطريقة شرهة، كان ذلك في أواخر العام 2006، عندما بلغت موجات نزوح العراقيين إلى سوريا مستويات غير مسبوقة، بسبب الحرب والقتال الطائفي المستعر هناك.

الناس في حيّنا تجنبوا بادئ الأمر التعاطي مع الوافد الجديد، لم يكن مألوفًا لديهم وجود غرباء بينهم، لذلك فضلوا الابتعاد قليلًا، ريثما تظهر معطيات أكثر عن شخصية الجار الجديد، الأجواء العامة كانت ملتهبة، فالصراع الطائفي، والمجازر الوحشية التي كانت تُرتكب يوميًّا في العراق ولدت لدى السوريين العاديين مشاعر جديدة ومتناقضة، الهُوية الدينية والطائفية كمحدد، أو مُعرف للأفراد والمكونات المجتمعية أصبحت حاضرة وبشدة، وبات السؤال عن الطائفة، والدين أساسيًّا وملحًّا، ولم يكد يخلو أي حديث، أو نقاش من الكلام عن الانتماء الديني، والطائفي، وحتى العرقي.

في خلفية الصورة برزت عدة أحداث، كان منها اجتياح العراق، وإسقاط نظام الرئيس الأسبق "صدام حسين" وإعدامه بطريقة مذلة صباح عيد الأضحى. وكأنه اكتُشف "فجأة" أنّ "صدام" رئيس سني لدولة تقطنها أغلبية شيعية، وأن ديكتاتوريته وبطشه لم يصيبا إلا الشيعة العراقيين!

في الخلفية أيضًا سيطرة إيران على العراق عبر السياسيين المتحالفين معها، وبواسطة مليشيات القتل الطائفية، واستبعاد العرب السُّنة من المشاركة في العملية السياسية، وغير بعيد عنها استشهاد رئيس الوزراء اللبناني "رفيق الحريري"، وانسحاب جيش الاحتلال السوري من لبنان بطريقة خُدشت فيها مشاعر الكرامة الوطنية "المعلبة" لدى الكثير من السوريين، وكان منها أخيرًا الحرب الإسرائيلية على لبنان صيف ذلك العام.

و"أبو أحمد" ذاك، بدا ذكيًّا بما يكفي ليحيط بشيء من تلك الصورة، لذلك وعندما حاول أحد أقربائي الحديث إليه، وتقديمه لبقية جيرانه في الحي، كان أول معلومة أدلى بها، أنه سنيٌّ، من بغداد، وأنه عمل دبلوماسيًّا في إحدى السفارات العراقية، وأنه خسر ولديه الوحيدين على أيدي الميلشيات الطائفية، شخصيًّا لم أصدق أيًّا مما قاله جارنا العراقي، كنت متأكدًا أنه شيعي، وعلمت لاحقًا أن اسمه لم يكن "أبا أحمد"، وأن لا أولاد له أصلًا، لكن لم يكن يعنيني أي شيء من ذلك، فالرجل كان خائفًا، وفضلًا عن ذلك فهو حر في ادّعاء ما يريد، ولم تكن شيعيته لتضرني، ولا سنيته المزعومة لتنفعني، وحاولت مرارًا إيصال رسائل له، مفادها أن ليس هناك ما يخشاه طالما هو بيننا.

كلام جارنا وسلوكه كان طبيعيًّا؛ فالرجل كما قلنا كان خائفًا، وفوق ذلك فهو غريب، وجد لظروف قاهرة بعيدًا عن بلده، وبيئته، ويحدث أن يشعر الملتجئ بالانكشاف، ويعاني الغربة، ويفتقد لشبكات الحماية التي كانت توفرها البيئة المحلية، والجماعة الأهلية، وذلك ما يدفعه دومًا للبحث عن المعوضات. فالإنسان لا يستطيع العيش عندما يفتقد الأمان، والغريب يسعى دومًا للتكيُّف سريعًا مع البيئة الجديدة، ذلك أن بقاءه معزولًا يجعله عرضة للإزعاجات، والمضايقات، والانتهاكات، ويقلل فرص حصوله على المنافع، والمكاسب التي يريدها لإشباع حاجاته الأساسية، لذلك يحاول الاندماج، وعندما يقوم الغرباء بذلك فإنهم يتبعون عدة طرق، وأساليب، وآليات سيكولوجية، وبعضها لاشعوري، يمكن تسمية إحداها بـ"الولاء والبراء النفسي" تيمنًا بقاعدة فقهية معروفة لدى التيارات الإسلامية، ألا وهي "الولاء والبراء."

ولكن للأولى معنى اجتماعي لا عَقَدي، فالغريب يجهد للبحث عن الجوامع، والمشتركات مع أفراد البيئة الجديدة، فيتولاها، ويتبناها، ويتمثلها في سلوكه، وقوله، كما أنه يتبرأ من كل ما يمكن أن يجعله غير مرغوب فيه، أو غير مقبول به في مجتمعه الجديد، ذلك تقريبًا ما فعله جارنا "أبو أحمد"، وذلك ما يقوم به العديد من المهاجرين العرب، والمسلمين في أوروبا، وأمريكا؛ فيحاولون إظهار تبنّيهم لقيم، ومعتقدات، وعادات المجتمعات الغربية، ويتخلون ولو مكرهين عن عروبتهم، وإسلامهم، فتراهم يزايدون أحيانًا في شتم العروبة، واحتقار قيم الإسلام.

بطبيعة الأحوال المجتمع السوري بغالبيته لم يكن عنصريًّا، ولم تعرف عنه نزعات "كزانوفوبيا"، وهي كره الغريب ومعاداته، بل بالعكس، فلطالما عُرف عن السوريين كرمهم، ورحابة صدرهم، لا سيّما تجاه إخوتهم العرب، ولطالما تمتع السوريون أيضًا بمشاعر عروبية "فائضة"، والأغلب أن مشاعرهم السلبية تجاه بعض العراقيين في ذلك الوقت، لم يكن مردها لاختلافهم الطائفي عنهم،

بل بسبب اعتقادهم أن ''الشيعة'' تحالفوا مع الولايات المتحدة في حربها ضد نظام عربي شقيق، وسهلوا مهمتها في إسقاط عاصمة عربية مركزية، وأما ما تعرض له بعض العراقيين في سوريا من مضايقات، أو استغلال، فلم تكن له حوامل طائفية، أو عنصرية، بقدر ما كانت انتهاكات فردية مردها الطمع، والجشع الموجود عند العديد من الأفراد، ولدى مختلف الشعوب.

في ذلك الوقت، لم يكن الإنسان السوري قد تحطم، ولم يكن المجتمع قد تمزق رغم كل ممارسات النظام، الذي كان لا يزال قويًّا وممسكًا بخناق المجتمع، أما مخاوف جارنا ''أبي أحمد'' فلم تكن لتتحقق، ولم يحدث أن تعرض أي عراقي لاجئ إلى سوريا، لأي تمييز، أو اضطهاد على خلفيات طائفية، أو مذهبية، ولم تجرِ محاولات للانتقام منهم بسبب ما كان يحدث في العراق، على عكس حال اللاجئين السوريين، والفلسطينيين السوريين اليوم، الذين يتعرضون إلى معاملة عنصرية، واضطهاد، واعتداءات مختلفة، في بعض دول الجوار، وخصوصًا في لُبنان.

وكان يمكن تفسير ما يتعرض له اللاجئون السوريون في لبنان، بكونه نتيجة للحرب الأهلية السابقة، التي فكّكت نظام لبنان السياسي، وقضت على توافقاته المجتمعية، وأخرجت أبشع ما فيه من أحقاد، وعنصرية، وطائفية، إلا أن ما يتعرض له اللاجئون السوريون، والفلسطينيون يتجاوز في تكراره، وتواتره أن يكون ردات فعل، أو عمليات انتقامية فردية، أو عشوائية. ذلك أن العنصرية، والطائفية، والتمييز، باتت متغلغلة في بنية النظام اللبناني الخاضع لهيمنة، وتسلط ميليشيا حزب الله، حليف النظام السوري، وشريكه في حربه ضد السوريين، ولا يستبعد أن الحزب وشركاءه الحكوميين يسعون لمعاقبة الهاربين من القتل الذي يغدقه عليهم نظامهم في الداخل، وإن حاولوا الإيحاء بأن لا علاقة لهم بتلك الاعتداءات، وأن استهداف اللاجئين هو ردات فعل أهلية على اختطاف، وقتل بعض الجنود اللبنانيين، ولا شك بأن ذلك سيساعد ''الحزب'' في توجيه الأنظار بعيدًا عن انغماسه في الحرب السورية، وهو السبب الرئيس الذي دفع فصائل سورية مقاتلة إلى محاولة نقل الصراع إلى داخل لبنان أساسًا.

والأرجح أنّه لن تنفع اللاجئين السوريين في لبنان أيّةُ محاولة لـ''تولي'' النظام، أو إعلان ''التبرؤ'' من أعدائه ومناوئيه، بمن فيهم تنظيم الدولة، وجبهة النصرة، ولن يحميهم من القتل، أو يعيد إليهم الأمان، إلا إسقاط النظام، وبتر أذرعه الإرهابية.

الوقوف مجدداً

شام صايف

تعلم كيف تصل لقاع الإحباط ثم تقوم من جديد: كيف يقويك؟ عندما يهزك بعنف ثم تسقط، ثم تضطر للنهوض، ثم يهزك بعنفٍ أكبر فتسقط ثم لا تجد من ينقذك ثم تضطر للنهوض وحدك فتقوم، ثم يهزك بقوةٍ شديدةٍ ما كنت لتبقى حياً لو كانت هذه أول هزة .. ثم تسقط فلا تجد من يكترث لك لأنك سقطت مراتٍ ومرات فملّك وملّوا سقوطك .. وتمكث على الأرض .. في القاع تتأمل سقوطك وتتأمل قوتك، وهل بقي لديك قوةٌ نفسيةٌ تعينك بعد تجارب متلاحقةٍ من السقوط .. بعد أن انفضوا من حولك .. تتأمل وقد أنهكتك تلك الهزات .. إنه رحيم يهزك بقوة! نعم؟! نعم إنه رحيم يهزك بقوة وبشدة لكنك لم تمت ولن تموت هو أعلم بقوتك وقد وصلت في آخر هزةٍ إلى حافةِ الانهيار وقد فقدت كل شيء ، نظرت في هذه الدنيا التي أفنت ما تملكه من زاد، نعم أنت لازلت تملك أكثر .. شد الهمة هو أعلم بقوتك ، لن تموت ولن تموت قضيتك هو أعلم بك وأعلم بها. تتأمل وأنت في الأرض وحيداً ولا أحد حولك.. ربما كل من حولك أمثالك تهزهم يد الرحمة. تقول: لا أريد النهوض حتى لا أسقط من جديد، لا أريد أن أقع مجدداً بهزةٍ أقوى، لكنك تذكر رحمته وأنه لن يصيبك بشرّ أبداً ، إن أصابك بالكد والكبَد والتعب ولكنك لن تصاب بشرّ لأنه رحيم .. تحاول أن تقف تمد يدك له، يرسل لك زجاجة ماء فقط أو لربما يرسل لك قطعة خبز فقط ليقول لك أنه معك .. لتجد في نفسك قوةً جديدةً ليست بسبب القوت إنما بسبب مدد داخلي لا تعلم سببه، لا تدري كيف يحدث بك كل هذا ولماذا، لا تدركه حقيقة الإدراك لكن في داخلك صوتٌ يناديك بلطفٍ خفي وصوت محب لا تسمعه بل تشعره. فتقوم لتسقط بدفعة قوية جداً لأن الهزات لم تعد توقعك، هذه المرة دفعة قوية آلمتك وأصبح قلبك يشكّ .. لماذا هذا؟ .. لماذا يحدث لي هذا فتنظر باحثاً عن الجواب هنا وهناك لتجد أن غيرك مدفوع بقوة أكبر ولازال قوياً متماسكاً .. وترى حولك أيضاً الكثيرين سقطوا على درب طويل ولم يقوموا بعد، منهم من مات على تلك الحال من أول هزّة ومنهم من لازال يسير وقد

سبقك فتتأثر بذاك السائر عن بعد .. يتلفت حوله ليشد من عزيمة الآخرين والبعض يسير دون تلفت، لكنك تتأثر بهؤلاء لأنك قررت أن تقتدي بهم، لم يعجبك منظر الذين سقطوا سواء في واحة عذبة أو في واد سحيق أو سقط على بضع دريهمات وليرات وبقي في جنته الساقطة .. تقرر بعد تلك الدفعة القوية الوقوف من جديد.. تقوم وتسير خطوات تشعر بعدها بقوةٍ أخرى وأنك لازلت في درب الأحياء الحقيقيين، تسير فترى الذين يلهون حولك في سقطاتهم تنافسهم الدنيا القبيحة ومع ذلك يلهون معها، على قباحتها هم راضون بها لكنك لا تريد هذا تريد دنيا جميلة وتريد هدفاً آخر تماماً، لا ترضى بما يتوفر لك الآن، لأن ما ينتظرك غداً أجمل ,, تسير من جديد في درب الإبل المئة التي لا تجد فيها راحلة.

طفل بتروا ذكوريته.... وآخرون قتلهم لقاح الحصبة
الأخطاء الطبية ... ملف طويل

ل . ن

(وفاة أكثر من 33 طفلاً في إدلب جراء لقاح الحصبة)، هكذا جاء الخبر، بكثيرٍ من البرود، فلم يعد الموت خبراً هذه الأيام، بات جزءاً من الحياة، يفوقها واقعيةً، ومع أن أعداد الأطفال ضحايا ما يحصل في بلدنا، وصلت أرقاماً بائسة، إلا أنها المرة الأولى، أظن، التي تأتي الوفاة فيها، نتيجة لقاحٍ، يفترض أنه وسيلةٌ لاستمرارية الحياة.
وسواءً كانت الوفاة نتيجة خطأٍ طبي، يتعلق بالأطباء وسوء التخزين، أو حادث جنائي كما خمنت جهات معارضة، إلا أنها كارثة إنسانية، بمعنى الكلمة، لا سيما أن أعداد الأطفال الضحايا في ازدياد.
وإن مرت هذه الكارثة، بين مجمل كوارثنا، فهي تعيد إلى الأذهان، أخطاءً طبية قاتلة، شهدتها سورية لسنوات طويلة، دون أن تظهر للإعلام، بشكلٍ بارز، أو أن ينال فيها الطبيب حكماً قضائياً، ففي معظم الأحيان يستسلم ذوو الضحية للقضاء والقدر، وعدم الرغبة في اللجوء إلى الجهات المختصة، وفي الوقت نفسه، يتم اسكاتهم بمبالغ مادية محدودة أحياناً.
وتتنوع الأخطاء بين عمليةٍ جراحيةٍ فاشلة، أو نسيان أداةٍ طبية في جسم المرض، إلى وفاةٍ بسبب الإهمال أو التقصير وسوء التشخيص، إلى عدم كفاءة الكادر المساعد للطبيب، والقائمة تطول.
ولا تكمن المشكلة فقط في الخطأ الطبي، الذي يؤدي إلى الوفاة أحياناً أو الإصابة بمرضٍ أو عاهةٍ ما، حقيقةً هي ترتبط بمشاعر وسلوكيات، لم تعتد احترام الآخر، في بيئةٍ يسودها منطق الأنا والمصلحة الشخصية، فكم انتظر مريضٌ أشهراً في مشفى ما، وفي الجهة الأخرى (واسطة) تسهل أمور مريضٍ آخر.
بالطبع، لا يمكن نكران أن ملائكة الرحمة، ليسوا شياطين بالضرورة، بعضهم قدم ولا زال جهوداً جبارةً، هدفها خدمة الإنسان وتخفيف آلامه، وهذا يشمل الأطباء والممرضين في مشافي النظام والمشافي الميدانية.
في العام الماضي نشرت صحيفة تشرين الحكومية تحقيقاً عن عملية ختانٍ لطفل، أدت إلى بتر ذكوريته، إذ بدأت القضية (من طبيب الطفل ولم تنته إلى الآن ولاسيما بعد المبلغ الكبير الذي طلبه مشفى الجامعة الأمريكية في بيروت كتكاليف للعلاج)، وجاء في الصحيفة أيضاً أن والد الطفل (قام بالادعاء أصولاً على الطبيب، ولكن بعد مضي وقت وبسبب كثرة الوسطاء تم إسقاط الحق الشخصي ودفع الطبيب مليون ليرة من أجل علاج ابني، لكن تبين لي وبعد مراجعة الجامعة الأمريكية في بيروت أن علاج ابني يكلف ثلاثة أضعاف هذا المبلغ الذي دفع لي كتكاليف للعلاج أي ما يقارب أربعة ملايين ليرة).
ورغم بشاعة هذه الحالة، إلا أن ما خفي أعظم، وهنا أقول أن الفساد الذي عاشته وتعيشه سورية، وصل إلى حدٍ، باتت فيه السفالة كما الخيانة وجهة نظر، الأطباء والمحامون والصحفيون، المعنيون بالإنسان، شركاء في قتله اليومي.
وفي سورية أفضل، ربما ينشئ جيلٌ أكثر وعياً وأخلاقاً، يضع الإنسان، كما وضعه الله، أولاً، قبل الدين والطائفة والانتماء السياسي، والرحمة للأطفال ضحايا كل شيء.

لسنا ضحايا.. ما دمنا نصنع الحدث

نبيل شبيب

ليس الحديث هنا عن ضحايا المعاناة الحقيقية بمختلف أشكالها، بل عن أولئك الذين أصبحت الشكوى مهنة يحترفونها.. فهؤلاء يرون أننا ضحايا على الدوام.. وأن علينا الاستسلام.. في عالمنا العربي والإسلامي ضحايا هوّة التقدّم والتخلّف.. وضحايا المؤامرات وضحايا موجات العدوان الأجنبي.. وضحايا الاستبداد الداخلي.. وضحايا الجهل والأمّية، والمرض والعجز.. ضحايا التفرقة والنزاعات بين بلادنا وداخل البلد الواحد.. وشبابنا ضحايا الأوضاع الاجتماعية القاهرة، وفتياتنا ضحايا الظلم المزدوج على حساب جنس المرأة، وأسرنا ضحايا الفضائيات الإباحية.. و.. القائمة طويلة، والإحساس بالوجود في موقع الضحيّة يستشري استشراءً خطيرا، ولم يعد يقتصر على الإحساس وحده، بل يترجمه انتشار اليأس ونشره، والاتّكاء على ذرائع حقيقية ووهمية، للقعود عن العمل وعن السعي لتغيير واقعنا، وكثيرا ما يعبر أحدنا عن ذلك بقوله: وما عساي أصنع؟..

كلا.. لسنا ضحايا، ولا يوجد في واقع الحياة البشرية فئة يمكن وصفها بفئة الضحايا من الولادة حتى الموت، فوصف "الضحية" هو وصف حالةٍ وقتية، لا تلصق بنوعٍ معينٍ من البشر، بل بفترةٍ محددة، تمثل كارثة طبيعية، أو كوارث الحروب والصدامات، فلا يبقى الضحية ضحيةً إلاّ بمقدارٍ ما يساهم هو في تأبيد وضعه الذاتي تحت تأثيرها.. لو أنّ جميع أفراد شعب فلسطين وضعوا أنفسهم في موضع "الضحية الأبدية" لَما عايشنا الانتفاضة بعد الانتفاضة، وألواناً من البطولات الفردية والجماعية الفذّة بعد ألوان.. وفي السيرة المطهّرة أمثلة أكثر وضوحاً وتعليماً، عندما ننظر "الآن"، من وراء القرون إلى بلال وياسر وسمية وأقرانهم وهم ضحايا قريش، ثمّ ما آل إليه حال الأمّة وقد وصلت خلال فترة وجيزة من عمر التاريخ إلى ما بين سور الصين وبحر الظلمات.

أسباب الاستمساك بموقع الضحية هي الأسباب الذاتية المستديمة وليس الأسباب الخارجية الوقتية، وكثيراً ما يمارسها من لا يعانون، ولكن يجعلون منها ذريعةً كيلا يؤدوا واجبهم تجاه من يعانون حقاً، كأن الفرد منهم يهوى تسويغَ قعوده عن التحرّك بأنّه لا يملك من أمره شيئا ليخرج من القفص الحقيقي أو الوهمي الذي يحبس نفسه وراء قضبانه. لسنا ضحايا.. شريطة أن يستوعب الواحد منّا نفسه أوّلاً، والواقع من حوله ثانياً، والطريق الموصلة إلى تغيير نفسه وتغيير الواقع ثالثاً، ولو كان لا يملك –مثلاً– إلاّ "درعاً" يبيعها بدرهمين فيقتات في يومه بأحدهما ويستثمر الآخر لغده، كما علّم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أحد الصحابة وقد جاءه يشكو ما معناه أنّه "ضحيّة الفقر". وما كان يسري على الفرد كان يسري على الجماعة في الشُّعب، ويسري على الجماعة من وراء الخندق، ويسري على الجماعة في صحراء شبه الجزيرة وحولها دولتان كبريان في أوج قوّتهما وهيمنتهما الدولية. لهذا نتعلّم في تربيتنا عندما تكون مناهج التربية قويمة، أنّ الإيمان واليأس لا يجتمعان في قلب المؤمن.. ولدينا معين لا ينضب من هذا وأمثاله، من أجل أن نتحرّك في هذه الحياة الدنيا، ليكون لنا ما نصبو إليه فيها وفي الآخرة.

مشكلة المشاكل واحدةٌ، لا تتبدّل، أن يتحوّل ما نعلمه من الدين بالضرورة أو نتعلّمه، من كلام نقول، إلى عمل نصنع، ولا يوجد في الدنيا حائل دون ذلك، أكبر من الحائل الذاتي في أنفسنا، فلا نبحثنّ عن أسباب خارجية نتّخذها ذريعةً، دون إغفال أخذها بعين الاعتبار، بل إنّ العمل المطلوب صنعه، هو ما يجب صنعه رغم العوائق الخارجية، وليس عند زوالها، وهي لا تزول من تلقاء نفسها، إلى أن تزول الدنيا وما فيها، وآنذاك نقف بين يدي الديّان، في يوم لا تزول فيه قدما عبد حتى يسأل عن أربع، حياته وشبابه وعلمه وماله، أفلا نلاحظ أنّه لا يُسأل عمّا يصنع الآخرون، وما إذا كان يوجد فيما يصنعون عائق بينه وبين الإحساس بأنعم الله عليه، ليشكره عليها؟.. وما الشكر إلا بتوظيفها وليس بتعطيلها وسجنها وراء قضبان وهم الإحساس أنّنا ضحايا إلى الأبد.

قدسيّا تحت الحصار

أيُّ وطنٍ هذا الذي صار فيه رغيفُ الخبز مرهوناً بموافقة الجهات الأمنيَّة؟!!!

وأيُّ رئيسٍ هذا الذي ما زال يفكِّر بهذه الطريقة من الأساليب الرخيصة لتركيع الشعب وإذلاله بلقمة العيش التي جعلَهُ الشَّعبُ مؤتمناً عليها حين جلس على كرسيِّ الحكم. ألَا تَبّاً لكرسيّ بشار الأسد الذي بات فيه الشَّعبُ السُّوريُّ ثلاثة شعوب منقسمة:

طبقة من الشَّعب الخائف الصَّامت "يمشي بجانب الحيط" فإذا انهدمَ الجدارُ مشى فوق كرامته فبات شعباً بلا كرامة، لا يهُمه سوى أن يعيش، حتى وإن كان ذلك العيش مَوسوماً بكلِّ أصناف الذلِّ على الحواجز كلَّ يوم، ومختوماً بموسيقا أصوات القصف الوطنيِّ كلَّ يوم، شعب يطلبُ الخبز منحنياً كما تطلبه البهائم، ويلعق بكل أدبٍ واحترامٍ حذاءَ الظالم، ومع ذلك يعاقبه النظام الحاكم بكل أنواع العقاب، حتى وإن لم يكن له ذنبٌ فيما يجري. والعجيب أنَّ هذه الطبقة من الشعب تبقى من أصحاب الولاء للطاغية الظالم الذي يعاملها بقانون (الرحمة تخصُّ والعقوبة تعمُّ) قانونُ نظامٍ غيِّ يحكمُ شعبَه مثلما كان يَحْكُمُ المجنَّدين في دوراتِ جيش الأسد المقبور غير الوطني، والأغبى من ذلك النظام هم أولئك المؤالُونَ له خوفاً أو طمعاً، على الرغم من أنهم لا يحصدون منَ الموالاة سوى المزيد من الانبطاح، فهنيئاً للمنبطحين.

وشعبٌ شبيحٌ، لا عقلَ يحمله في رأسه، فهو كالثَّوْرِ الأحرقِ تهُزُّه خرقةٌ حمراء يحملها النِّظامُ بيده في ساحة مذابحِ الشبيحة على الجبهات الساخنة كلَّ يوم، ولا أدلَّ على ذلك من أنَّ النظام بات يتاجر بهؤلاء الشبيحة من أجل البقاء على كرسي الحكم على حساب دمائهم المهدورة، وما أحداث مطار الطبقة والغوطة وغيرهما إلا أدلة قوية على أن النظام كان حريصاً أشد الحرص على سلامة بشار الأسد وبِطانته مِنْ حولِهِ أكثرَ مِنْ حرصِهِ على سلامة دماء شبيحته الذين كان يتركُهم فريسةً سهلةً للقتل في كثيرٍ من الجبهات، حتَّى إنَّنا لم نسمعْ أنَّ النظام سعى إلى تحريرهم من الأسر حين كان الجيش الحرُّ يَعْرِضُ مبادلةَ الأسرى من الشبيحة لديه بالأسرى المدنيِّين لدى النِّظام، بل كان النظام حريصاً على فَكِّ أسرى جنود (حزب اللات) أكثرَ مِنْ حرصِهِ على فَكِّ أسرى شبيحته وجنوده، هؤلاء الشبيحة قَبِلُوا بكلِّ غباءٍ أن يموتوا ليعيش بشار من بعدهم، فهنيئاً لهم ذلك الغباء الذي هم فيه.

ويبدو أنَّ شبيحة (جادات قدسيا) أرادوا أن يَتَذَاكوا، فكانَ مبلغُ ذكائهم أنَّهم أحدثوا حَدَثاً باتَ يعرفه الجميع فأشعلوا جبهة قدسيا حتى لا يزجَّ بهم النظام في أتون جبهة الغوطة الشريفة التي حفرَتْ جرحُاً عميقاً في جبهة الأسد الخائنِ الخائرِ، ولا سيَّما أنَّ المعارك الأخيرة في الغوطة أفضَتْ عن خسارة كبيرة في قتلى جنود النظام في الغوطة، وبات النظام يعاني عَجْزاً دَفَعَه إلى سَحْبِ قوَّاته من القلمون باتجاه دمشق من غير جدوى.

أما القسم الثالث فهو الشَّعب الحرُّ، لأنَّه يمثِّل الفطرة، فالإنسانُ العاقلُ بِطَبْعِهِ حُرٌّ، لا يركع لغير الله، لأنَّه سليم الفطرة، هؤلاء هم الأحرار، لا يضرُّهم أولئك المؤالُونَ للنظام المنبطحون على بطون الجوع، ولا يضرُّهم الشَّبيحة الذين يُقتلون في كلِّ يوم بثمنٍ رخيصٍ ليبقى سيِّدهم بشار في القصر.

أمَّا (بشار الأسد وأركان نظامه) فلا نَحْتَسِبُهُمْ أصلاً في طبقات الشعب، لأنَّهم ليسوا بالأصالة ولا الوكالة سوريين، لأنَّهم عبيدُ الصَّهاينة، بل أنجس من الصَّهاينة، ولأنَّ رؤساء الصَّهاينة لم يفعلوا بأرضٍ زَعَمُوا أنَّها وَطَنَهم ما فعله بشَّار الأسد بسوريَّة.

أَجَلْ، ليس بشار الأسد من طبقات الشعب، لأنَّه نَصَّبَ نفسه إلهاً للصامتين الخائفين من بَطْشِهِ فَتَاجَرَ بِخُبْزِهِمْ، وجعلَ من نَفْسِه لِصّاً يسرق كلَّ يوم دماءَ شبيحته الحمقى الذين يقاتلون فيُقتلون في سبيله وبئس المصير، يموتون كالجرذان ليعيش هو كالخنازير باحثاً في صفحات الانترنت عن عشيقته القديمة.

هذا هو بشار الأسد الذي والاهُ بعضُ الشَّعب السوريِّ خوفاً أو طَمَعاً، فلم يرحمهم، بل جعلَهم سلاحاً يحارب به الثُّوَّار الأحرارَ على الأرض، فكلَّما سحقَ الثُّوَّارُ جمجمتَهُ بأحذيتهم انبرى بشار الأسد لينتقمَ من الشعب، لأنه لا يجرؤ على غيرهم طَبْعاً !! فيحاصر الخبز، ويحبس الطَّحين، ويغتال مدارس الأطفال، ذلك هو الأسد، أسدٌ على الضعفاء الذين سكتوا خوفاً منه، ونعامةٌ أمام الثوَّار الذين يسحقون مُلْكَه بأحذيتهم كلَّ يوم فيحاصرون عرشَه حتى يأتي اليومُ الذي هو حقٌّ على الله – بإذن الله – مصداقَ قولِهِ تعالى: (وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ).

هاربة من الموت
«حكاية الطفلة سيدرا عند اقتحام بلدة قدسيا»

شيماء البوطي

ليست نائمةً لا .. وليست ذاهلةً من مشهدٍ مرعبٍ كما يحدث مع كثير من الأطفال في سوريا. بين يدي أمها كانت سيدرا ذات الثلاثة أعوام، حيث انتشلتها من سريرها وركضت بها هائمةً على وجهها تقصد المكان الذي يتجه إليه أغلب أهل الحي. تسير بغريزة القطيع خلفهم بحثاً عن ملجأ يقيهم من نار المدفعية وطلقات القناصة، عندما سلط النظام السوري قواته على بلدة قدسيا في ضواحي دمشق، تأهباً لاقتحامها بحجة تخليصها من العصابات الإرهابية وتحديداً اليوم الثامن والعشرين من أيلول عام 2012. الملجأ الذي كان في البناء المقابل لمنزل سيدرا وأمها.

الذي كان في البناء المقابل لمنزل سيدرا وأمها. سيدرا النائمة بوداعة، كانت تلصق خدها الرطب على كتف أمها، ما جعل الأم تجهل إن كان البلل على كتفها هو من لعاب سيدرا النائمة أم لأن جسد الأم يتعرق بشكل غير اعتيادي. في منتصف الطريق تحركت الطفلة، تململت قليلاً وأنت أنيناً خافتاً..

نادت وهي نصف نائمة : ماما .. رجعيني عالبيت ..ما بدي روح – "اصبري يا حبيبتي " كانت الأم تخاطب نفسها، تخاطب قلبها الذي أشفق على طفلة ما كانت أمها لتزعج نومها الهانئ ، لولا أنه لن يكون هانئاً مع الاقتحام والخوف والرعب وأصوات المدفعية. كانت الأم تحث الخطا وتداعب شعر الصغيرة وظهرها لتستيكن من جديد، وبالفعل ..لم يستمر بكاء سيدرا أكثر من ثوان. ما إن وصلت أم سيدرا إلى الملجأ بيدين مرتعشتين وقدمين عاجزتين عن حملها، وبعينين جاحظتين نظرت إلى أحد شباب الحي تومي إليه أن يتناول الصغيرة من يديها إذ لم تعد قادرة على حملها. جحوظ عينيها ازداد أكثر عندما وجدت يديها غارقتين بالدم، لم يكن في بالها أن الرطوبة لم تكن بسبب العرق والتوتر والشد العصبي، بل كانت دم طفلتها. في الملجأ حاول شبان من الحي إسعاف الطفلة ولكنهم كانوا عاجزين. وبقيت الأم تنظر ذاهلة إلى الجسد الطري والقسمات الحلوة والحياة تنسحب منه شيئاً فشيئاً، وأنفاس الصغيرة تخبو وتنقطع مع الروح التي خرجت أسرع مما يتخيلون. روح سيدرا فارقت جسدها بلا عودة، وبلحظة واحدة. وأصبحت ضحكة الفرح التي كانت تشيعها في البيت مجرد ذكرى وملامحها مجرد صورة على الجدار. لم تنته قصة سيدرا والأم .. فبعد أن رأوا على القنوات الفضائية صورة القتيلة وأمها تبكي وتدعو على بشار الأسد والقناص الذي قنص حياة طفلة في رحلة هروبها من الموت، إلى الموت؛ القتلة داهموا منزل العائلة واعتقلوا أحد أقربائها وابنه الشاب الجامعي، ليكتشف أهل الحي بعد يومين جثتيهما مرميتين في الشارع، وقد قتلا ذبحاً بالسكين وعلى جسديهما آثار تعذيب. تحت ذهول عيني الأم التي ما زالت لا تستوعب كل ما يجري وكأنها تعيش كابوساً مرعباً. بينما عقلها يحاول مضغ واستساغة تهمة أودت بحياة رجلي أسرتها دفعة واحدة : تهمة أن ابنة قتلت على يد قناص مجرم ووحش بشري لم يعرف التاريخ له مثيلاً، وتهمة أن الرجلين رفضا كلاهما الاعتراف أن المجرم واحد من "العصابات المسلحة" كما يشاء النظام.

شهداؤنا في الذاكرة دوماً .. لن ننساكم حتى نلحق بكم .